



مع ابن كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ سَخِيمٍ
وَسُخِيُونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا
يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلِيمٌ ﴿٥٦﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ
اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٧﴾
وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٨﴾ ۞ ^(١)

فقد جاء في تفسير هذه الآيات قوله:

يقول تعالى مُخْبِرًا عن قدرته العظيمة: أَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ نُصْرَةِ دِينِهِ، وَإِقَامَةِ
شَرِيعَتِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَسْتَبْدِلُ بِهِ مَنْ هُوَ خَيْرٌ لَهَا مِنْهُ، وَأَشَدُّ مَنَعَةً، وَأَقْوَمَ سَبِيلًا، كَمَا قَالَ
تعالى: ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴾ ﴿٥٦﴾ ^(٢)، وَقَالَ
تعالى: ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ﴾ ^(٣)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنْ
يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ ﴿٥٧﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٥٨﴾ ^(٤) أَي: بِمَمْتَنَعٍ
وَلَا صَعْبٍ.

(١) المائدة: ٥٤ - ٥٦.

(٢) محمد: من الآية ٣٨.

(٣) النساء: من الآية ١٢٣.

(٤) إبراهيم: ١٩، ٢٠.

وقال تعالى هُنَا: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ أي: يرجع عن الحقِّ إلى الباطل ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾

هذه صفات المؤمنين الكُمَّل: أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه ووليّه، مُتَعَزِّزاً على خصمه وعدوّه، كما قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ (١)

﴿تُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ أي: لا يرُدُّهم عمَّا هم فيه - من طاعة الله، وإقامة الحدود، وقتال أعدائه، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر - لا يرُدُّهم عن ذلك رادٌّ، ولا يصدُّهم عنه صادٌّ، ولا تُخيفهم لومة لائم، ولا عدل عاذل.

روى الإمام أحمد، عن أبي ذرٍ رضي الله عنه: قال: «أمرني خليلي ﷺ بسبع: أمرني بحُبِّ الْمَسَاكِينِ وَالِدُنُوتِ مِنْهُمْ، وَأَمْرِي أَنْ أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ دُونِي، وَلَا أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقِي، وَأَمْرِي أَنْ أَصِلَ الرَّحِمَ وَإِنْ أَدْبَرْتُ، وَأَمْرِي أَنْ لَا أَسْأَلَ أَحَدًا شَيْئًا، وَأَمْرِي أَنْ أَقُولَ بِالْحَقِّ وَإِنْ كَانَ مُرًّا، وَأَمْرِي أَنْ لَا أَخَافَ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ، وَأَمْرِي أَنْ أَكْثِرَ مِنْ قَوْلٍ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ؛ فَإِنَّهُنَّ مِنْ كَثَرِ تَحْتِ الْعَرْشِ» (٢)

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: من اتَّصَفَ بهذه الصفات فإنما هو من فضل الله عليه وتوفيقه له ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: واسع الفضل، عليم بمن يستحقُّ ذلك.

(١) محمد: من الآية ٢٩.

(٢) أحمد: مسند الأنصار، حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه رقم ٢٠٤٤٧.

أخي المسلم: تدبر هذه الآية، واستمسك بما تُرشدُ إليه من صفات أولئك الذين يُؤتيهم الله من فضله، ويفوقهم لنصره، ويختارهم لدينه من بين خلقه.

﴿ سُبْحَانَهُ وَبُحْبُوتَهُ، أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكُفْرِينَ مُجْتَهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾

ومن أحسن تدبر هذه الصفات، استطاع - بتوفيق الله - أن يأخذ نفسه بما يحبُّ الله ويرضى، لا بما تُمليه الأهواء والشهوات.

إن المؤمن - وهو يتلو كتاب ربه ويعملُ به - يعرف وسائله في تحقيق غايته.

يعرف أن صفات النفس هي الأصلُ فيما يرجوه من فضل ربه ورحمته.

وهذه الصفات تُثلى على الناس في آيات، وتُرى في وقائع وأحداث، وتُنظر في

سُننٍ ماضيةٍ باقيةٍ.

إن الإيمان له دلالةٌ وحلاوته، ودلالةُ الإيمان تُرى في عمل، وحلاوته لا تكون إلا لمن كانت هذه أولى صفاته، كما جاء في الحديث المتفق عليه، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَدَّفَ فِي النَّارِ » (١)

وهل يمكن أن يكون أهل الإيمان كذلك إلا إذا كانوا كما قال الله تعالى:

﴿ أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكُفْرِينَ ﴾ أن يكون المؤمن متواضعاً لأخيه ووليِّه،

(١) البخاري: كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، رقم ١٥.

مُتَعَزِّزًا عَلَى خَصْمِهِ وَعَدُوِّهِ.

صفاتٌ لَا بُدَّ أَنْ تَتَحَقَّقَ لِمَنْ يَخْتَارَهُمُ اللَّهُ لِنُصْرَةِ دِينِهِ ﴿مُحِبِّهِمْ وَمُحِبُّونَهُ، أُذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكُفْرِيِّينَ مُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾

فكيف إذا تبدلت هذه الصفات، وظهرت أصدادها في جيلٍ من الأجيال؟
هل يُطَوَّى دينُ الله، ويُتْرَك الأمرُ للضياغ والفساد؟

إِنَّ دِينَ اللَّهِ لَا يُطَوَّى، وَشَمْسُهُ لَا تَغِيبُ. إِنَّ بَارَحَتَ رِوُوسَ قَوْمٍ أَنْارَتْ عِنْدَ آخِرِينَ.

﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ

مُحِبِّهِمْ وَمُحِبُّونَهُ﴾

وَعَدُّ مِنَ اللَّهِ. وَاللَّهُ لَا يَخْلِفُ وَعْدَهُ. فَلتُراجِعْ أَنفُسَنَا وَنَحْنُ نَرَى مَا نَرَى مِنْ كَيْدِ أَعْدَائِنَا؛ فَإِنْ ذُنُوبُنَا أَخَوْفُ عَلَيْنَا مِنْ عَدُونَا، وَإِنْ فُرْقَتْنَا سِلَاحُ نَصْرِ لَعْدُونَا.

« وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا » (١) فليكن حُبكم في الله، لا في شيء سواه « وَلَا

تَحَاسَدُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا » (٢) كما أمركم الله

« الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْدُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ » (٣)

(١) مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، رقم ٨١.

(٢) البخاري: كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابير، رقم ٥٦٠٤.

(٣) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه، رقم ٤٦٥٠.

أبْحَثُوا عَنْ مَقْتَضَى الْإِيمَانِ وَدَلَالَتِهِ، وَحَلَاوَتِهِ فِي رَوَابِطِكُمْ، وَاشْغَلُوا أَنْفُسَكُمْ
بِذَلِكَ؛ فَإِنَّ مَا وَقَعَ بِكُمْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ، لَا مِنْ كَيْدِ عَدُوِّكُمْ.
وَاجْعَلُوا جِهَادَكُمْ - فِي حَيَاتِكُمْ كُلِّهَا - فِي سَبِيلِ اللَّهِ، لَا فِي شَيْءٍ سِوَاهُ.

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُؤًا مَّا عِنْتُمْ
قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفَى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ
تَعْقِلُونَ ﴿١٣٥﴾ هَتَأْتُمْ أَوْلَاءَ مُحِبُّوهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لِقَاكُمْ قَالُوا
ءَامِنًا وَإِذَا حَلَوْا عَضُوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الصُّدُورِ ﴿١٣٦﴾ إِنْ مَسَسَكُمُ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۗ وَإِنْ تُضِرُّوهُ
وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٣٧﴾ ۞ (١)

عندئذٍ تُدرِّكون ما يُخاطبكم الله به في قوله: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ
ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ ﴿١٣٧﴾ ۞

﴿١٣٧﴾

(١) آل عمران: ١١٨ - ١٢٠.